

أغوستينو نيتو

1979-1922

أغوستينو نيتو هو أحد أوائل الثوار في القارة السوداء الذي اتخذ لنضاله الثوري طابعاً سياسياً قاده منذ وقت مبكر لاعتناق الماركسية أيديولوجية له. مارس العمل الثوري منذ شبابه الباكر في كل الأماكن التي وجد فيها، داخل وطنه أنغولا وخارجه، وفي المنافي وفي السجون، وما أكثرها. وكانت همومه الثورية منذ البدايات تتمحور حول وطنه أنغولا وسائر المستعمرات البرتغالية. وكانت الثقافة هي البداية في نشاطه من أجل تحرير وطنه أنغولا وتحرير المستعمرات البرتغالية. ففي عام 1951 شارك في تأسيس مركز الدراسات الأفريقية في لشبونة مع رفاق دربه في المنفى ماريو دي أندراي من أنغولا وأملكار كابرال من غينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر ومارسلينو دو سانتوس من الموزامبيق. كان النشاط في المركز يدور حول الأدب والفن والتاريخ. فهي كانت بالنسبة إليهم مصادر وميادين يعبرون بواسطتها عن خصائص شعوب بلدانهم التي كان يستعمرها البرتغاليون. وسرعان ما تحوّل ذلك النشاط الثقافي في المركز إلى العمل السياسي. وكان نيتو قد أصبح في ذلك التاريخ شاعر أنغولا، المعبر في شعره عن ثقافة الشعب الأنغولي وعن مشاعره وعن آلامه وآماله. وهكذا بدأ يمارس العمل السياسي. وشارك في نشاطات وطنية مختلفة. ثم صارت الحركة الشعبية لتحرير أنغولا هي الإطار الذي بدأ يناضل باسمه. وكانت تلك المنظمة قد بدأت تعمل في عام 1956 خلال وجوده في السجن بدور أساسي من رفيقه وصديقه ماريو دي أندراي الذي انتخب رئيساً لها عند تأسيسها. وكان نيتو وأندراي قد انتسبا قبل ذلك إلى الحزب الشيوعي البرتغالي، وأسساً حزباً شيوعياً في أنغولا. ورغم أن نيتو كان في السجن لدى تأسيس الحركة فإنه كان من العاملين على تأسيسها كحركة شعبية لجميع الأنغوليين، بديلاً من الحزب الشيوعي الذي كان سيحصر النضال الوطني في إطار سياسي وأيديولوجي محدد. وحين خرج نيتو من السجن في عام 1957 تحت ضغط حركة تضامن واسعة شارك فيها كبار المثقفين من أمثال لويس أراغون وفرانسوا مورياك وجان بول سارتر، تابع نضاله في صيغ وأشكال مختلفة بما في ذلك بالكفاح المسلح. وقاده نضاله المتعددة صيغه في الثقافة والسياسة والكفاح المسلح بعد التحرير إلى موقع رئيس الجمهورية في عام

1975. وظل في منصبه ذلك حتى وفاته في عام 1979. وكان من أوائل ما قام به بعد تحرير أنغولا، من موقعه في رئاسة البلاد، عقد معاهدة صداقة مع الإتحاد السوفياتي على مدى عشرين عاماً. كما استقبل قوات عسكرية كوبية انتشرت في أنغولا، كما انتشرت في الموزامبيق وغينيا بيساو لحماية تلك البلدان من الأخطار التي كانت تهددها من التدخل العسكري من قبل حكام جنوب أفريقيا العنصريين ومن قبل حكام الكونغو الذين كانوا قد استولوا على السلطة بعد المجازر التي ارتكبوها ضد باتريس لومومبا وأنصاره إثر اعتقاله وقتله وتذويب جسده بالأسيد. وكان نيتو قد التقى في الكونغو في عام 1965 بالقائد الثوري تشي غيفارا وتحدث معه حول إمكانيات تدخل قوات كوبية لدعم الثورة في أنغولا. وهو ما أشار إليه فالديس ريسكت أحد قادة الحزب الشيوعي الكوبي في حديث له عن تلك الفترة. ومعروف أن ريسكت كان قد كلف مع رفيقه فالديس فيفو بمرافقة القوات التي ذهبت إلى المستعمرات البرتغالية بدعوة من قادتها بعد التحرير للدفاع عنها ضد التدخلات العسكرية من قبل جنوب أفريقيا في الحرب الأهلية دعماً لزعيم الجبهة الوطنية هولدن روبرتو.

ولد أغوستينو نيتو في عام 1922 في مدينة كاكسيكان القريبة من لواندا. أنهى دراسته في لشبونة. انتقل بعد انتهاء دراسته الثانوية إلى العمل في مؤسسات الدولة الإستعمارية بين عامي 1944 و 1947. لكنه كان حريصاً منذ البداية على العمل والنشاط في الميدان الثقافي، كما أشرنا إلى ذلك. إذ كان يعتبر أن الثقافة تشكل المصدر الأساسي للإرتقاء بالوعي عند النخب وفي الأوساط الشعبية. وقاده طموحه لامتلاك المعرفة في ميادينها المختلفة إلى الإلتحاق بجامعة كويمبرا في البرتغال. واختار الطب مجالاً للتخصص كمهنة للعمل في المستقبل. لكن اختيار الطب ميداناً لتخصصه لم يمنعه من متابعة نشاطه في الميدان الثقافي الذي كان وسيلته للعمل في السياسة وفي الشأن الوطني.

ولأنه كان شاعراً فقد وظف شعره في النضال دفاعاً عن قضية شعبه. وأدخله نشاطه السياسي إلى السجن وهو في الجامعة. تخرج من الجامعة طبيباً في عام 1958. وعاد

إلى أنغولا في عام 1959 ليتابع على أرض الوطن نضاله من أجل تحرير بلده وشعبه من نير الإستعمار. وشارك مع رفاقه وأصدقائه كابرال ودو سانتوس ودي أندراي وآخرين في تأسيس تنظيم باسم "الحركة المعادية للإستعمار". وهي كانت حركة سرية. وصار زعيماً لتلك الحركة ورئيساً للحركة الشعبية لتحرير أنغولا، التي اتخذت مقراً علنياً لها في المرحلة الأولى في كوناكري عاصمة دولة غينيا التي كانت قد نالت استقلالها في ذلك التاريخ مع عدد من المستعمرات الفرنسية في أفريقيا الغربية. وقاده نشاطه السياسي مرة جديدة إلى السجن في عام 1960. تم اعتقاله في عيادته الطبية في عاصمة وطنه لواندا التي كان يمارس فيها عمله الطبي بعد تخرجه من الجامعة. وكانت قد قامت في ذلك الوقت إنتفاضة في قرية كاكسيكان مسقط رأسه. وجرى قمع تلك الإنتفاضة بوحشية. قيد نيتو بعد اعتقاله إلى المنفى في جزر الرأس الأخضر. وسمح له بمزاولة مهنة الطب في منفاه تحت المراقبة.

كانت الحركة الشعبية في تلك الفترة تواجه صعوبات بسبب الإنشقاق الذي حصل فيها. فقد أسس المنشقون حركة جديدة باسم "الجبهة الوطنية لتحرير أنغولا"، وشكلوا حكومة في المنفى اعترفت بها بعض الدول الأفريقية. لكن الحركة الشعبية استطاعت أن تتفوق في المنافسة. إذ تحوّلت بسرعة إلى حركة جماهيرية ذات قاعدة متعددة الإثنيات. وفي عام 1961 بدأت الحركة تمارس الكفاح المسلح. وكان أول عمل مسلح قامت به الحركة مهاجمة السجن في لواندا. كما قام مقاتلوها بأعمال تخريبية في عدد كبير من مزارع القهوة التي كان يملكها المعمرون البرتغاليون. وكان الرد من قبل السلطات الإستعمارية شديد العنف والوحشية. وسقط في تلك العمليات القمعية ألوف الضحايا. وأرسل المئات من الوطنيين إلى المنافي خارج البلاد. وأطلق نيتو حملة واسعة احتجاجاً على تلك الأعمال الوحشية ضد شعبه. فاعتقلته السلطات الإستعمارية وأدخلته السجن في لشبونه. ومن جديد قامت حملة عالمية للتضامن معه لإطلاق سراحه شاركت فيها مجلة "بريزانس أفريكان"

(Presence Africaine). كما شارك فيها مثقفون كبار كان من بينهم الروائي دوريس ليسينغ. وكان نيتو قد أصبح في ذلك التاريخ شاعراً مرموقاً ترجمت دواوينه إلى سبع لغات عالمية. وأدت الحملة العالمية إلى الإفراج عنه في عام 1962 ووضعه تحت الإقامة الجبرية في لشبونه. وفي ذلك العام بالذات نقلت الحركة الشعبية مقرها من كوناكري إلى مدينة ليوبولدفيل في الكونغو كينشاسا. وفي ذلك العام عقد المؤتمر الأول للحركة. وانتخب نيتو رئيساً لها. ومن موقعه في رئاسة الحركة اضطلع نيتو بمسؤوليات سياسية وعسكرية معاً. وجمال في أوروبا الشرقية والغربية وفي أنحاء أفريقيا والأميركيتين لحث الرأي العام العالمي والحكومات على دعم القضية الأنغولية وسائر المستعمرات البرتغالية. والتقى خلال وجوده في واشنطن الرئيس الأميركي كنيدي. لكن الرئيس الأميركي خذله وفضل عليه هولدن روبرتو. كما زار كوبا والتقى كاسترو الذي قدم له الدعم المتوفرة شروطه. وهو الدعم الذي تحوّل بعد التحرير إلى عمل عسكري مباشر قدمته لأنغولا وللمزامبيق وغينيا بيساو القوات الكوبية على امتداد بضع سنوات.

توصل نيتو في عام 1965 إلى أن ينتزع من منظمة الوحدة الأفريقية اعترافاً بحركته. وفي عام 1968 سحبت المنظمة الإعراف الذي كانت قد منحته لحكومة المنفى التابعة للجبهة الوطنية. إلا أن المنظمة قامت في عام 1972 بعد اعترافها الوحيد بالحركة الشعبية بمسعى إلى عقد اتفاق بين التنظيمين ينصّ على إقامة مجلس أعلى لتحرير أنغولا وقيادة عسكرية موحدة من ممثلين لهما. لكن ذلك الإتفاق لم يكن قد دخل بعد حيز التنفيذ حين حصلت "ثورة القرنفل" في البرتغال. فانقلب الوضع رأساً على عقب. وفي شهر شباط من عام 1975 عاد أغوستينو نيتو إلى لواندا حيث جرى له استقبال جماهيري شاركت فيه المدينة بأسرها. واستطاعت الحركة الشعبية أن تفرض نفسها على منافسيها المدعومين من قبل جنوب أفريقيا. ساعدتها في مواجهة تلك المخاطر التي كانت تهددها من قبل حكام جنوب أفريقيا العنصريين القوات الكوبية التي كانت قد وصلت لحماية المستعمرات البرتغالية

المتحررة وللحفاظ على استقلالها. وعندما أعلن الإستقلال في 11 تشرين الثاني من عام 1975 انتخب أغوستينو نيتو رئيساً لجمهورية أنغولا الشعبية. واختار للدولة نظاماً إشتراكياً مستوحى من النموذج السوفياتي. واختار الحركة الشعبية لتحرير أنغولا الحزب الوحيد في البلاد، واختار للحزب الماركسية – اللينينية أيديولوجية له. وبقي رئيساً للبلاد حتى وفاته في عام 1979. وكان قد أصابه مرض عضال في الأعوام الأخيرة من حياته. فذهب إلى موسكو للعلاج. وتوفي هناك.

رحل أغوستينو نيتو وبقي تراثه الثوري في الثقافة وفي السياسة وفي الكفاح من أجل حرية وطنه. رحل واستمرت أنغولا تعاني من حرب أهلية دامت عقدين من الزمن. وكانت تلك الحرب قد بدأت في عهد نيتو. وكان يؤججها تدخل كل من حكام جنوب أفريقيا العنصرية حينذاك وحكام الكونغو الذين تحوّلوا بعد تصفية باتريس لومومبا إلى أدوات بيد المخابرات الأميركية والبلجيكية. وكانت الحركة الشعبية والسلطة السياسية بقيادة أدواردو دو سانتوس الذي خلف نيتو في رئاسة البلاد تتحوّل بالتدريج إلى مافيا داخل الدولة وعلى تخومها وضدها في الصراع حول ما تختزنه أنغولا من ثروات كبيرة من كل الأنواع، لا سيما مناجم الألماس. وكانت تلك التحوّلات في أنغولا تترافق مع ما كان قد حصل للتجربة الإشتراكية برمتها بعد انهيار الإتحاد السوفياتي، وتحوّل روسيا ذاتها إلى مرتع لكل أنواع المافيات داخل السلطة وعلى تخومها وضدها.

لكن الحديث عن أغوستينو نيتو كقائد ثوري في النضال لتحرير أنغولا وتحرير المستعمرات البرتغالية الأخرى يقضي بالضرورة بالتذكير برفاقه الذين شاركوه كل من موقعه وبكفاءاته في تلك الثورة التي بدأها معاً وأكملوا المسيرة معاً حتى تحقيق انتصارها. وهم ثلاثة: ماريو دي أندرادي وأملكار كابرال ومارسلينو دو سانتوس. كان دي أندرادي من البدايات رفيق درب نيتو. شاركه في الإنتساب المبكر إلى الحزب الشيوعي البرتغالي. وشاركه في تأسيس الحركة الشعبية لتحرير أنغولا وسبقه إلى رئاستها. ثم صار بعد انتصار

الثورة وزيراً للخارجية في أول حكومة أنغولية في ظل الإستقلال. لكنه اختلف مع الرئيس نيتو في وقت لاحق وترك الوزارة. ثم توفي بعد ذلك بفترة من الزمن. وكان دي أندراي شخصية لامعة. كان يتميز بتفانيه وبصرامته في المواقف السياسية في اللحظات الحاسمة. وربما كانت بعض صفاته تلك هي السبب الذي قاده إلى الإختلاف مع صديقه ورفيقه نيتو، الذي كان يتمتع بمرونة وبعقلانية وواقعية في نضاله خلال الثورة وفي مواقفه السياسية من موقعه في رئاسة البلاد بعد تحررها.

أما أملكار كابرال فكان بين تلك المجموعة من كبار قادة الثورة الأكثر ثقافة. وكانت شخصيته الأكثر جاذبية بين رفاقه. وكان انتسابه إلى الحركة الشيوعية في وقت مبكر قد قاده إلى تعميق ثقافته الماركسية. وصار ماركسياً راديكالياً. دمج في نضاله من أجل التحرير بين الطابع الوطني والطابع الطبقي. إذ اعتبر أن تحرير الأرض ينبغي أن يقود إلى تحرير الإنسان. وتحرير الإنسان، في نظره كماركسي، كان يقضي، بعد تحرير الأرض من الأجنبي، بالعمل لمنع الطبقات المالكة من ممارسة استغلالها للإنسان. وساهم بنشاط منذ البداية في تأسيس مركز الدراسات الأفريقية في عام 1957 مع رفاقه نيتو ودي أندراي ودو سانتوس.

ولد أملكار في عام 1924. أصول والده من جزر الرأس الأخضر. وكان يمارس مهنة التعليم. تابع أملكار دراسته في لشبونة. وبعد انتهاء دراسته واستناداً إلى ثقافته الماركسية عمل جاهداً على تعميق معرفته بتاريخ وطنه غينيا بيساو أولاً وبتاريخ المستعمرات البرتغالية وتاريخ أفريقيا في شكل عام. واكتشف خلال قراءته لتاريخ بلده غينيا بيساو أنها كانت في أعقاب اكتشاف أميركا مركزاً رئيسياً لتصدير العبيد إلى القارة الجديدة. وقادته دراسته لواقع بلده ولواقع أفريقيا وللدور الذي لعبه الإستعمار في تدمير شعوبها إلى جعله ثورياً راديكالياً. وكان على رأس "الحزب الأفريقي لاستقلال غينيا وجزر الرأس الأخضر" الذي أسسه في عام 1953. وكان شريكاً لنيتو وأندراي ودو سانتوس في إطار حركة واحدة هدفها تحرير جميع المستعمرات البرتغالية بالكفاح بأشكاله كافة، بما في ذلك

بالكفاح المسلح. وكان قد نجح بقيادته للكفاح المسلح في تحرير ثلثي مساحة غينيا بيساو. وفيما كان يستعد لإجراء إنتخابات في المناطق المحررة في عام 1973 اغتالته يد الغدر. وخلفه شقيقه لويس في الموقع الذي كان فيه في الحركة، ثم في رئاسة البلاد عندما تحررت غينيا بيساو في عام 1974. لكن لويس سرعان ما لحق شقيقه إثر انقلاب عسكري أطاح حكمه.

ثالث هذه المجموعة من رفاق نيتو هو مارسيلينو دو سنتوس. وهو شخصية مرموقة في تاريخ الحركة الوطنية في الموزامبيق. وكان مثل نيتو شاعراً مرموقاً. وكان مثله ومثل المجموعة يساري الإتجاه إشتراكي الإنتماء. تابع دراسته ونشاطه الثقافي والسياسي في لشبونه في البداية. ثم انتقل إلى باريس التي صارت المركز الأهم لنشاطه في شتى المجالات. شارك مع رفاقه نيتو وكابرال ودي أندراي في العمل مع جاليات بلدانهم في المغتربات الطوعية والقسرية. وتكونت في باريس بالذات شهرته كشاعر وكمثقف أفريقي بارز مع مجموعة من الكتاب الأفريقيين المقيمين خارج بلدانهم. وشارك من باريس مع رفاقه في تأسيس "الحركة المعادية للإستعمار" (1957). وشارك في عام 1961 في تأسيس "الإتحاد الوطني الديمقراطي في الموزامبيق". وهو أول حزب سياسي كان قد تشكل في الموزامبيق للدفاع عن القضية الوطنية المطالبة بالإستقلال. وفي العام ذاته انتخب لموقع السكرتير الدائم للمؤتمر الذي التقت فيه المنظمات الوطنية في المستعمرات البرتغالية. وشارك في عام 1962 مع رفيقه إدواردو موندلاني في دار السلام في تأسيس الجبهة الوطنية لتحرير الموزامبيق (FRELIMO). وانتخب سرକتيراً للعلاقات الخارجية في الجبهة. وأسندت رئاسة الجبهة إلى موندلاني. وبعد استشهاد موندلاني عين دو سانتوس رئيساً مؤقتاً للجبهة، ثم أسندت الرئاسة بعد ذلك إلى سامورا ماشيل، الذي أصبح بعد التحرير رئيساً لجمهورية الموزامبيق، وأسقطت طائرته في إحدى رحلاته المكوكية في بلدان شرق أفريقيا. استمر دو سانتوس في نشاطه المتعدد الجوانب سياسياً وثقافياً في كل المحافل باسم الجبهة، وباسم العمل المشترك مع رفاقه الآخرين أغوستينو نيتو وأملكار



كابرال وماريو دي أندراي حتى تحرير بلدانهم في عام 1974. وقد أسندت إليه بعد الإستقلال مناصب عديدة في الدولة.

لقد أتحت لي فرصة التعرف على ثلاثة من ذلك الرباعي الثوري الكبير هم أملاكار كابرال وماريو دي أندراي ومارسلينو دو سانتوس. ورغم أنني كنت أشترك في المهرجان العالمي للشباب الذي نظم في العاصمة الرومانية بوخارست في عام 1953 الذي شارك فيه أغوستينو نيتو، فلم تتح لي فرصة التعرف إليه. لكن زميلي وصديقي فالدس ريكست المندوب الكوبي في اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي هو الذي التقى به وحدثني في وقت لاحق عنه. وأخبرني أنه جاء إلى المهرجان عضواً في الوفد البرتغالي. لكنه غادر الوفد البرتغالي فور وصوله واختار الإنضمام إلى الوفد البرازيلي، حتى لا يبقى في المهرجان مواطناً برتغالياً، رغم أن الوفد كان بقيادة الشيوعيين الذي كان هو واحداً منهم.

التقيت بالقادة الثلاثة في أواسط ستينات القرن الماضي عندما كنت أقيم في فيينا ممثلاً لحركات السلم العربية في قيادة مجلس السلم العالمي. وكانت العلاقة مع الحركات الوطنية في أفريقيا واحدة من مهماتي في المجلس. وخلال ثلاثة أعوام من وجودي في تلك المهمة الأممية تكونت لي مع القادة الثلاثة صداقة حميمة ساهمت في تعميقها المعارك التي خضناها معاً في المؤتمرات العالمية التي كان مجلس السلم العالمي ينظمها دفاعاً عن قضية السلم في العالم وفي الدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصائرهم بحرية، وفي دعم حركات التحرر الوطني من أجل استقلال بلدانها. استمرت علاقتي مع كابرال ودو سانتوس في مناسبات عالمية متعددة، كان آخرها في عام 1972 في موسكو في الإحتفالات التي أقامها الإتحاد السوفياتي بمناسبة مرور خمسين عاماً على تأسيسه. وكان دي أندراي قد غادر الحياة كما أذكر. وبعد فترة وجيزة من ذلك اللقاء وصلني نبأ اغتيال كابرال.

أكثر من ثلاثة عقود مرت على غياب أغوستينو نيتو الذي كان قد سبقه إلى الرحيل كل من دي أندراي وكابرال. لكن الثورة التي قادها أولئك الأبطال من رموز الحركة

الوطنية التحررية الكبار في أفريقيا، قد وقعت في الغدر . غدرها من جاءوا إلى قيادة بلدانهم بعد رحيل القادة الكبار الذين قادوا تلك البلدان إلى الحرية في الكفاح المرير وفي التضحيات الجسام . وأصبح التاريخ اليوم على موعد مع تاريخ جديد يعيد للثورة القديمة في الزمن الجديد ألقها . ثمة دور تاريخي يبحث عن بطل في شروط جديدة، وفي عصر جديد، دور وبطل يستخلصان الدروس من التاريخ القديم في الإيجابي منه وفي السلبي . لا بد لأفريقيا أن تخرج من حاضرها، وتتحرر من سارقي إنجازات ثوراتها . وهي مهمة الإنسان الأفريقي الجديد.